

الخليو

— ١ —

وصل البريد الذي يحمل عدد الطان المؤرخ في ٢٤ من مارس سنة ١٩٠٧ والمشتمل على حديث الجنب العالي^(١) مع مندوب الجريدة المذكورة في قصر القبة. واليك تعريب ما قاله ذاك المندوب: « لم يكن يدور في خلدي منذ بضعة أعوام حين كنت في مدينة ديفون وقابلت سموّ الخديوي متستراً في قصره الصيفي الصغير « بوتيه » — أنني سأتشرف برأى سموه مرة أخرى في مثل هذا الوقت القريب وهو مقيم بين رطايه . ولقد طالما دعاني سموه لزيارة مصر ووصفها لي بأنها من أجل بلاد العالم . غير أنه لم يكن لديّ وقتئذٍ شيء يدل على المهمة التي نيطَ بي فضاؤها .

« لقد قلت إنك ستأتي إلينا » بهذه الكلمات المستحبة قابلني سموه عند باب القبة وهو قصر سموه الشتوي . وكان النهار وضّاح الجبين والحديقة ترسل من أنفاس الربيع روائح عطرية، وأشجار اللوز مزدانة بالأزهار، والعصافير تغرد مبتهجة في أشجار الأكاسيا القائمة على طريق القصر في جوّ سماؤه نقية صافية من الغيوم .

ولقد كنا نود لو أن ما ترمز إليه الطبيعة ينطبق على الحياة العمومية في مصر، ولكن ما يحول في الصدور يقيم مشا كل بالغة منتهى الاشكال ، فإن هفوات السياسة الانكليزية أحدثت استياءً شديداً في البلاد حتى أخذت الألسن تلهج برغبة سموّ الخديوي في التنازل عن سدّته لما تولى نفسه من الملل والضجر بما يظهره الانكليز من تجاهل سلطته . ولقد كثرت التقديرات والتخمينات على أثر ما أظهره سموّ الخديوي من التحفظ والصمت المستمر منذ سنوات طويلة . غير أن سموه عدل معي عن ذلك . واني سعيد باقتداري على نشر ما صرّح به هنا قال سموه .

(١) نشر في العدد ٢٠ من الجريدة المؤرخ ٣١ من مارس سنة ١٩٠٧ بعنوان « حديث الجنب العالي

مع مندوب الطان »

« ان ضرورات الحالة السياسية الخاصة جعلتني منذ زمن طويل أحجم عن الاعلان للملا بما أشعر به في مسائل بلادي . ولكن ما دمت تقول ان مكوتي هو في الخارج أداة للرجم بالغيب ومنار للخطأ ، وما دمت اعلم أن هذا التحفظ يُفسَّرُ في مصر نفسها بضروب مختلفة، فاني أغتنم فرصة زيارة صديقي هو مندوب «الطان» لأفصح عن عواطفي وآرائي . «أنا أحب بلادي حباً شديداً كجميع المصريين من كبيرهم الى صغيرهم ونحن متشبهون بأرضنا ، لأنها أشياءنا وأملنا كنا وموضوع حبنا، لا نستطيع أن نموت بعيدين عنها . فان المصريين لا يغتربون ولا يتركون وطنهم، وإذا غابوا عنه فانهم يشعرون بتبرج الشوق والرغبة في الرجوع اليه . ولا أزال أتمثل نصب عيني جماعة من الفلاحين المساكين الذين لقيتهم في أثناء أسفاري، فان العيون تقرأ على جباههم آية الحزن البليغ والميل الشديد الى رأى قريتهم في الدلتا أو في الوجه القبلي . ولقد كان منظرهم يؤثر في تأثيراً شديداً . وإذا لم يكن لأولئك الفلاحين شيء من الفلسفة والعلم التاريخي ، فان لهم غريزة طبيعية تجذبهم نحو الوطن . وهذا الشعب المحافظ هو شعب نجاح . فاني تتبعت مسيرته في صليل الرقي يوماً فيوماً ودهشت من السهولة العجيبة التي يتلقى بها التعاليم الأوروبية . اعرض على المصري أي شيء أردت، وأره أكثر الآلات ارتباكاً في تركيبها، أو أكثر المعدات اتقاناً واكتمالاً، فهو يتعلم كيف يستخدمها بلا إبطاء . ولقد رأيت في معاملنا العمال المصريين يديرون معدات بالغة منتهى الدقة ، وكان المهندسون يقولون لي معجبين « ان جميع العمال عندنا من الوطنيين ، وأنهم تدربوا على العمل في بضعة أسابيع فقط » . وقد استخدم هذا العقل أيضاً في ترقية التمدن الحديث بالقطر المصري فتعود الشعب الأحوال والظروف الجديدة وألها سريعا . فهو يفهم ويستفيد ، وان اليوم الذي يصبح فيه الفلاح المصري مضارعاً لفلاح أي بلد من البلدان المتقدمة أصبح قريباً » .

« أما المالية المصرية فقد أصبحت على قواعد ثابتة وعادت ثقة أوروبا بنا ، حتى أصبحت القاهرة والاسكندرية من أهم المدن المالية في العالم . وقد زال القلق الدولي من جهة الدين المصري ، وحان الوقت الذي يجب أن نصرف فيه كل جهدنا، لافي انجاح الاهالي المادي فقط، بل في سد حاجاتهم العقلية والأدبية، واني لا أرى أمراً أهم من ذلك » .

« ولقد أخطأ من قال ان المطالب الوطنية تحولت الى حركة عدائية على الانحجاب والى حركة تعصب . فاني أنكر هذا القول بجميع قواي ، لأن الأمة المصرية طيبة الأرومة من طبيعتها ، وهي مستقيمة محبة للشغل والتساهل، فتى عوملت بلطف ورفق عرفت كيف تقابل تلك الثقة ، وان التساهل من القواعد الكبرى في ديننا ، والقرآن يعلمنا أن نحترم جميع

الأنبياء سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ، ونحن جميعاً متمسكون تمسكاً شديداً بديننا ، ومحافظون على تعاليمه . »

« كن على ثقة بما أقول . اني سافرت كثيراً ولو كان جميع الناس يدققون في المحافظة على قواعد دينهم الأدبية كالمسلمين ، لكان الشر أقل مما هو عليه الآن في العالم . واني أريد بهذا دحض تهمة التعصب التي تغضبنا أكثر مما أقصد تعظيم جنسنا »

« لقد أكدوا أيضاً اني أريد إعادة السلطة الشخصية لأنفذها على الطريقة الشرقية ، وأنني أريد أن استرجع العادات الاستبدادية كما فعل بعض أسلافي . فأنا أرد على هذا القول بأن تربيتي كانت كلها في أوروبا واني عرفت ضرورة المشاركة بين الأمة وعاهلها ، لضبط إدارة البلاد وجلب الخير لها . فان السلطة الاستبدادية — لو وجدت — لكانت حملاً ثقيلاً على مائتي ، ولو كانت كل أفكار متجهة الى اشباع مطامعي الشخصية لما كانت الحس عشرة سنة من ملكي سوى آلام طويلة لا نطاق . بيد أني أعتقد اني اشتغلت بكل قواي خير بلادي وهذا هو الذي أيد شعاعي في السمات العصبية . ولقد كنت على الدوام أترك شخصيتي ولم أتبع سوى خطة سياسية واحدة ، هي مساعدة كل من يعمل الخير البلاد . فاني لم أعارض قط في اتخاذ تدابير كنت أعتقد انها نافعة لمصر ، ولم أستخف قط بنصيحة من النصائح . »

ثم تطرق سموه الى الكلام عن أعماله في مريوط التي صرف فيها كثيراً من وقته وجهده وذكر أنه يرغب في مد السكك الحديدية نحو طرابلس الغرب رغبة في مصلحة مصر ، وان يساعد بنفسه في مشروع عظيم أي وصل القاهرة بطنجة في يوم من الأيام .

وختم سموه الكلام بقوله لندوب الطان « قل للفرنسيين ليأتوا الينا عدداً عظيماً ، فنحن لا ننسى ما فعلوه لنفعنا ، ولا نزال نحبهم . »

(الجريدة) : نقول ان لهذا الحديث الخديوي ثلاثة أطراف . أحدها أنه يعلم أن عادة الملوك والأمراء لا يصرون بالقول تصريحاً إلا بعد أخذ رأي رجال حكومتهم فيه ، فاحترز عن ذلك حفظه الله بأنه لا يجب أن يفسر سكوته بأنه غير راض عن الحالة الحاضرة ، أو انه في خلاف مستمر مع أولي الإرشاد . أراد أن يعلن الى الملا عواطفه حتى لا يبقى للتكهن ولا للخطأ محل — على أن ما ذكره ليس من قبيل التصريحات التي تلزم الحكومة بعمل بعينه أو تظهر نية من النوايا التي تحرص الحكومات على عدم اذاعتها . وليس يوجد فيما ذكره مرمى الى شيء جديد .

وهذا الطرف من حديث سموه لا يفسر عند حسن الظن إلا بأن الأمير يريد أن يثبت للعلا المصري والأوربي بأنه متفق مع الحكومة . ولا شك في أن اتفاقه معها على ما فيه

مصلحة البلاد هو أكبر ضمانة لخير مصر خصوصاً متى أضيف الى ذلك العبارة الأخيرة التي ختم بها المقال وهي: «إني لم أرفض قط نصيحة من النصائح».

الثاني: قاصر على حال وصف البلد لمن لا يعرفه وصفاً يطابق الواقع من ان المصري مستقيم الميل سليم الذوق، زكي العقل، وأنه في غاية الاستعداد للمدنية وأنه يعوزه الترقى الأدبي وأن القوى منصرفة الى إنائه إياه، وأن المالية المصرية قد حسن حالها. فيجب أن تحول قوى الشعبين أكثرها الى الترقى الأدبي. ولا خلاف في هذا الوصف بين ما ذكره سمو الأمير وبين ما يظهر من تقارير الحكومة المصرية وأعمالها وتقارير جناب لورد كرومر نفسه.

الطرف الثالث: أن سمو الأمير ينكر على من يقولون بوجود التعصب الديني في مصر قولهم — وأنه يبرأ من تهمة حب الاستبداد بالسلطة دون الأمة، بل هو يرغب مشاركتها إياه في الحكم — فاما التعصب الديني فإنكاره واجب على المنصف لأنه غير موجود في الواقع. وأما حبه مشاركة الأمة إياه فليس معناه عند من يفسره بحسن نية أن الأمير يشارك في الرأي حزباً بعينه، بل أولى به أن يفسر بأن الأمير وحكومته متفقان على مشاركة الأمة إياه في العمل، بدليل أن الحكومة ورأسها سمو الأمير تميل الى توسيع اختصاص مجالس المديريات (كما ذكرنا في الجريدة أمس) ولا يبعد أن ذلك يتدرج الى توسيع اختصاص المجالس الأخرى النظامية، حتى يؤول الأمر بالتدرج الى مشاركة حقيقية فعلية. وهذا لا يستفاد منه مطلقاً أن الأمير يعضد حزباً بعينه، إذا كان القول بالتعصيد مستفاداً من هذا التصريح.

على أن لفظ المشاركة الذي عبر به سمو الأمير لا ينصرف الى المجلس النيابي لأنه متى وجد المجلس النيابي لم يكن في الأمر مشاركة فعلية. إذ مجلس النواب متى وجد أخذ من الأمير كل سلطة.

تلك هي أطراف الحديث الخديوي، فما الذي فيها مما يؤدي بالتيسر الى أن تحمل على الأمير حملتها الأخيرة التي نشرت ملخصها «الأجيشن ستندرد» وما الذي يمكن أن يسوء المحتلين منه إلا عدم إطراء الحكومة أطراء صريحة كمادة الملوك والأمراء في أحاديثهم. على أن العبارة الأخيرة لسموّه من أنه يعمل بالنصائح التي ينصح بها لا تفسر إلا بأنه يعترف لمجموع حكومته وامتناعه، بأن الخير الذي وصف البلاد فيه، هو من آثار عمل حكومته بنصائح المحتلين بالضرورة.

وعلى ذلك فانا نرجو محتكري الوطنية أن لا يزيدوا في الطنبور نفمة، وأن يقلعوا لمصلحة الأمة عن الشعب المؤدي الى سوء الظن بين الجناب العالي وبين حكومة الاحتلال، أو بين الأمة وبين الحكومة، فإن حسن الظن هو الطريق الوحيد لتحقيق المطالب السليمة.

- ٢ -

دار هذا الحديث بين الجناب العالي^(١) والمستر ديسي الكاتب المعروف قبل سفره الى لندرا . ثم ورد أمس تلغرافياً على الايتندار اجيسين بجملة كما ذكرت . وهذا تعريبه :

إني تشرفت بدعوة الجناب العالي الى محادثته قبل سفري من القاهرة . وإن بيني وبين مموره من العلاقات الودية ما كان بيني وبين أبيه الخديو توفيق وجده الخديو اسماعيل فكنت ألقى الملاحظة والانعطاف الراسخ من الجد والاب والحفيد ولولم ألق غير هذا كله لكان لدي من البواعث ما يحملني على تلقي تلك الدعوة الخديوية بالترحاب . وفوق هذا انني كنت أشعر شعوراً شخصياً بأن الرأي العام البريطاني يهتم بمعرفة رأي الجناب العالي في شأن الحالة السياسية الحاضرة بالقطر المصري وجميع الذين ممعوا الخطبة الوجيزة التي ألقاها مموره في أثناء المأدبة التي أقيمت اكراماً له في غلاهدول أيام زيارته الأخيرة للندرا — يعلمون أن مموره يتكلم الانكليزية بسهولة ويعبر فيها عن آرائه بعبارة صحيحة كل الصحة . ولكنني أظنه يفصح عن أفكاره باللغة الفرنسية بسهولة أكثر من السهولة التي يتكلم بها الانكليزية وإذا خاطب أحداً يتكلم بلغة الفرنسيين فانه يفضل الكلام بها كجميع الشرقيين على التقريب . ولقد جاوز مموره الثلاثين قليلاً وبدأ السمن يظهر على جسمه فزاد ما بينه وبين جده اسماعيل من الشبه الشديد وهناك وجه آخر للشبه بينه وبين جده وهو اعتداله في الكلام عن جميع الناس حتى الذين يعتقد انهم فعلوا ما يكدر صفاه ويوجب استياءه . فاني أستطيع أن أقول — وأؤكد قولي — بأن اسماعيل لم يكن ليفوه بكلمات إلا نادراً جداً عن الذين ساعدوا على خلعه ، بل كان يجنب تلك الكلمات في سنوات نفيه ، وهو متصدع الفؤاد من الجوع ، ملتهب الصدر شوقاً الى مصر . وما يقال عن اسماعيل باشا من وجه الاعتدال يقال عن مموره عباس الثاني فقد لحظت أن مموره وإن يكن يتكلم بحرية عظيمة ظاهرة ، فانه لم يشر قط أقل اشارة شخصية الى سبب من أسباب الاستياء التي حصلت له أو اعتقد أنها حصلت له مدة الحكم الذي انقضى الآن (أي مدة حكم اللورد كرومر) والذي لم تكن تقدر الوكالة البريطانية على اتقاذه بدون أن يحدث لسموره سبب للاحتياء .

(١) حديث الجناب العالي مع المستر ديسي نشر بالعدد ٦٦ من الجريدة الصادر في ٢٧ / ٥ / ١٩٠٢

ولقد صرّح بأن مموره يقدر قدر الخدمات التي أداها اللورد كرومر للقطر المصري بما أماده من ثقة الممالين بمصر وما أظهره من المساعدة في أعمال الري ، فكانت خطته وسيلة لتقدم البلاد في سبيل النجاح المادي ويعتقد مموره أن نجاح البلاد المادي ينسب الى ارتفاع أسعار القطن في السنوات الأخيرة بقدر ما ينسب حسن نظامه الاداري .

أما الاحتلال العسكري في مصر فيظهر لي أن مموره تكلم عنه كلام رجل عاقل ، فهو يعترف بأن طبيعة الحال أدت الى هذا الاحتلال ولكنه لا يفصح عن أي رأي شخصي متعلق بتفضيله حل المسألة المصرية على طريقة أخرى . ويقول أن مصر كانت ذات ثروة عظيمة وضعف عظيم فلم يكن لها مندوحة عن السقوط تحت حماية دولة أوروبية عظيمة وكانت بحيث لو خرجت الجنود الانكليزية من وادي النيل لجاءت بالضرورة دولة أجنبية أخرى لاحتلال محلها . وليس في وضع دولة من الدول الأخرى أن تفعل ما فعلته انكلترا لانجاح مصر من الوجهة المادية . ويعتقد مموره أن هذا الرأي هو بالأجمال رأي رعاياه المصريين حتى أولئك الذين يريدون استقلالاً أعلى من الاستقلال الحاضر في داخلية البلاد وهم مقتنعون بأنه اذا كان لابد من بقائهم تحت حماية دولة أجنبية فلا يرون نفعاً في استبدال الحماية الانكليزية بحماية أخرى .

وإذا صحت نظراتي في تفسير كلامه المقرون بشيء من التحفظ ، والاحتياط فاني أميل الى الاعتقاد بأن مموره لا يرجح حدوث تقدمهم من العلاقات الموجودة الآن بين الدولة الحامية والدولة المحمية . فان انكلترا — كما ألمع مموره — وجدت في مدة احتلالها فرصاً عديدة لتحويل الاحتلال الموقت الى حماية معلنة بموافقة الدول الأوروبية الأخرى . ومموره يعترف بأن انكلترا كانت تظهر حسن القصد باعلانها تكرر أنها لا تنوي أن تبقى على الدوام في القطر المصري . غير أنه لم يفت الجنب العالي ان كل رفض أحجمت به انكلترا عن الاستفادة من إحدى تلك القرص ، كان يدل على أن هدم الطريقة الحاضرة التي تسير الحكومة الخديوية عليها تحت مراقبة المستشارين الانكليز هو أمرٌ صعبٌ تزداد صعوبته يوماً فيوماً .

ولا يمكن حدوثه بدون معارضة الدول . وهب أن انكلترا ميالة الى تغيير تلك الطريقة في الحكم فان مموره لا يستطيع أن يدرك وجه النفع الذي تؤمله انكلترا من تغيير طريقة تمكنت انكلترا بفضلها من الحصول على السلطة العليا ، بدون أن تتحمل المسؤولية مباشرة . ثم قال لي مموره ما يفيد أنه لم يأت ولن يأت شيئاً يحيز القول بحق وصواب « انه دس »

الدعائس على الاحتلال أو على نفوذ انكلترا في مصر . ثم ذكر لي مموره هنا انه منذ ارتقى الى الأريكة الخديوية لم ير من جلاله السلطان سوى أعظم انعطاف وملاطفة وانه يحترم جلاله السلطان عبد الحميد كرئيس روحاني للدين الاسلامي الذي يتمسك به مموره أشد تمسك .

ثم صرّح سموّه بأنه لم يؤيد قط رأياً من الآراء التي يمكن أن تكون قد جالت في رؤوس بعض رجال الامتانة عن احادة السيادة التركية الى شبه جزيرة سيناء^(١). وقال مهما يكن مركزي كخديو فلا يستطيع أحد أن ينكر عليّ انني مباشرة من نسل محمد علي مؤسس الأسرة المالكة فلا يمكن اذاً أن يدور في الخلد انه — ولا سيما هو — يحلم بهدم ما بناه جده الشهير ليعيد مصر الى سلطة الحكومة التركية .

ثم تكلم سموّه بأقوى عبارة عن شكر لجلالة الملك ادوارد السابع لما رآه من اكرامه ومجاملته وأعرب عن حبه واحترامه له وذكر انه لو كان يستطيع لما تأخر عن زيارة انكلترا في كل صيف لا للدلالة فقط على صداقة شخصية ، بل للدلالة على معرفة سموّه قدر الاتحاد الوثيق العرى بين انكلترا ومصر التي هي تحت الحماية الانكليزية^(٢) حماية اذا لم تكن معلنة رسمية فهي ضمنية فعلية .

اما الازمة الحاضرة فلم يقل فيها سموّه شيئاً على التقريب ، ولم يفه ببنت شفة انتقاداً على اللورد كرومر أو سياسته بل مدح امتقاعته ومقدرته وأصف لأن مفاجأة المرض اضطرته إلى قطع سلسلة أعماله الطويلة كعتمد لبريطانيا العظمى . وأظهر ارتياحه الشخصي الى نصيحة جناب اللورد بتعيين السير إلدن غورست خلفاً له ، وذكر أنه لما كان جناب السير غورست مستشاراً للمالية كانت العلاقات بينه وبين سموّه ودادية مستحبة .

ثم بسط لي سموّ الخديو بلا تفصيل القاعدة العامة التي يرتئي جعلها أساساً لمجرى العلاقات بين الحكومة الفعلية والحكومة الشرعية وتلك القاعدة هي التعاون الودادي بين

(١) كانت سيناء أرضاً عثمانية لان الحدود لم تدين بين مصر وهذا الصقع باعتبار أن جميعها أرضاً عثمانية. فانتهز لورد كرومر فرصة أن السلطان أراد وصل المقبة بسكة حديد الحجاز الى عمان وأثار مشكلة سياسية حادة أرسل سير ادورد غراي بسببها انذاراً نهائياً لتركيا وضمت سيناء الى مصر . وحدث ذلك في سنة ١٩٠٦ . واذا أردت التوسع فانظر مذكرات بلنت :

My Diaries p. 138, 139, 141, 144, 146, 150, 151, 156, 157, 168, 169, 170, 185 ; The Akabah Quarrel, Letter from Mr. Blunt W. Sir Edward Grey, 9 th may, 1907.

وكل هذا في الجزء الثاني من ذلك الكتاب .

(٢) قول الخديو عباس في سنة ١٩٠٧ لمستر ديتي : « ان مصر . . . هي تحت الحماية الانجليزية ، حماية اذا لم تكن معلنة رسمية فهي ضمنية فعلية » . . . قول في غاية الحكمة وأرجح أن سموّه لم يرد بذلك إلا رد دعوى الانجليز بأنهم احتلوا مصر بحسن نية وأنهم يريدون الجلاء لما يرون وقته ، وربما بذلك « تنبيه الرأي العام لحقيقة السياسة الانجليزية » .

الفريقين^(١) . ثم أفصح عن اقتناعه بأن القنصل الانكليزي الجنرال أيثا كان يهتم بنجاح مصر بقدر اهتمام سموّه .

وقال ان الشعب في البلاد المصرية مثل كل شعب في البلاد الشرقية لا يمكنه أن يتصور الحكومة في غير شخص الحاكم كالخديو نفسه . وان سموّه مثل الحكومة الشخصية على شكل يعجز عنه أي قنصل جنرال أجنبي . وسموّه يعتقد أن مجرى الأحكام يكون أسهل عما نرى إذا كانت الادارة الوطنية والادارة الأجنبية تشغلان يدًا واحدة

وكل ما أمّطع قوله هو أن سموّ الخديو أكد لي أنه إذا سئل رأيه في مسائل تتعلق بالعادات والقوانين والمصالح صرّح بأن رأيه هو ضرورة المحافظة على قواعد العدل التي أقيمت في العهد البريطاني، فان العدل البعيد عن الخوف والمحابة هو — على رأي سموّه — الواجب المنتظم على كل حاكم .

ثم شكّا الجناب الخديوي من الجرائد الانكليزية التي أتهمته تهمة معينة ولما كذّبها تنكذيباً صريحاً علنيّاً، لم تعتذر الى سموّه .

(١) يقصد سياسة الوفاق : انظر باب سياسة الوفاق في هذا الكتاب .

— ٢٣ —

كان من المنتظر قبل الآن أن يزور سمو خديوينا المعظم^(١) لوندرة في هذا العام لأنها نتيجة تكاد تكون لازمة لدلائل الوفاق بين سموه وبين الادارة الانكليزية في مصر بعد ذلك الجفاء الطويل الذي صيغته سياسة اللورد كرومر . وإن من لا يزال يعلق بذهنه أثر من حديث سموه مع المستر ديسي خصوصاً ما يتعلق منه بالروابط التي خلفتها الظروف بين مصر وبين انكلترا يجد أن زيارة سموه لوندرة ليست من الأمور الفجائية التي يصح التظن في أسبابها أو يخشى من نتائجها . كلاً أنها نتيجة طبيعية للوفاق الذي اشتهر أمره ودل عليه الحس . فهما يكن من تخمين بعض المفكرين فانا لا نرى لهذه الزيارة اودية أهمية سياسية يكون من ورائها تغيير الحالة الحاضرة في مصر الى حال أخرى . وكل ما يمكن أن تنتجه هذه الزيارة من النتائج — ان كان لها نتيجة سياسية — هو أن تفسح الادارة الانكليزية للسلطة الشرعية مجال الاشتراك معها في تصريف الأمور التي لا تضر قاعدة الاحتلال ولا تنفع في انهاء سلطة الأمة والاعتداد برأيها في الأعمال العامة أكثر من الآن . ذلك لأن كل ما تنتظره الأمة من نتائج أعمال سمو الأمير وأعمال المصريين لدى الانكليز انما هو الدستور . وقد عرف فيه آخر رأي الانكليز وما العهد ببعيد عن تقرير السير إلدن غورست وتصريحات الحكومة الانكليزية في البرلمان . تلك التصريحات تدل بوضوح على أن انكلترا لا توافق الآن على منح الدستور، ولا توافق على الحكومة الذاتية، ولو على شكل استبدادي، أسنى أن يكون الحكم في مصر لسلطة الشرعية والوزارة الأهلية والموظفين المصريين . الزيارة لا يترتب عليها تقرير العمل في مصر على غير ما قضت به تلك التصريحات فلا يمكن أن تأتي بنتيجة ذات

١ — نشر بالعدد ٣٧٥ من الجريدة في ٢ من يونيو سنة ١٩٠٨ بعنوان « سفر الجنب العالي »

أثر سياسي جدّي على أي حال . كذلك لا يمكن أن تكون زيارة ممّوه من شأنها أن يخشى منها على المصالح المصرية لأن ممّوه حفظه الله يعلم مقدار إخلاص أمتّه له وتعليقهم آملاً كباراً بنياته السامية ومقاصده النافعة . ولأن الحالة الحاضرة هي من طبيعتها ألاّ تقبل التحول إلاّ إلى أحسن منها . فإذا يخشى الناس من تغيير حال هو أسوأ ما يكون : حكومة ذات سلطة باطنة لها كل التصرف، وسلطة ظاهرة لا تملك من أمرها شيئاً . حكومة لا تخشى أن يشهر عنها أنها تأبى على الأمة أن تتعلّم على نفقتها الخاصة كما هو حاصل الآن من توقف الحكومة في اجابة مطالب لجنة شورى القوانين . حكومة يبين عليها أنها تعتبر صوت الرأي العام صرخة في واد لا يقام لها في التشريع وزن .

من أجل ذلك لا نجد محلاً لأن نعلق أهمية سياسية على زيارة ممّوه لانكلترا زيد عن الأهمية السياسية التي علقناها على اتفاقه مع جناب المعتمد البريطاني هنا من عام أول . بل أولى بتلك الزيارة أن تعتبر زيارة ودادية تقوي روابط الوداد والوفاق بين ممّوه أميرنا وبين جلالة ملك الانكليز .

وإننا نرجو الله لسموّ أميرنا المحبوب ، سفرًا سعيداً ، مقرونًا بالصحة والعافية ، وعوداً أحمد .

— ٤ —

احمد شوقي بك الشاعر^(١)

فهم الناس من حديث شوقي بك^(٢) الشبيه بالرسمي أن عابدين تعترف للانكليز على مصر بشيء من الحقوق أو على الأقل أن الانكليز قد أصبحوا شركاء لسمو الخديو في حق الحكم. في حين أن شوقي بك يقول في حديثه أن جلالة السلطان يعتبر أمر البرلمان المصري من الحقوق الخاصة بسمو الخديو. فكان شوقي بك يريد أن يقول في معرض الاعتذار للمصريين عن الجناب العالي أو عن عدم استبعاد سموه الى منح الدستور ان الاحتلال الانكليزي الذي لم يبق لسمو الخديو سلطة فعلية ذات أثر حقيقي في حركة الحكومة والذي قصر سموه على حيازة الحقوق الشرعية دون استعمالها أن هذا الاحتلال أصبح شريكه في تلك الحقوق الشرعية أيضاً، لأن منح الدستور هو تنازل من قبل الأمير عن بعض حقوقه الشرعية، فإذا علق سموه هذا التنازل على رضى الانكليز، كان معناه أنه معترف بأن الانكليز حقوقاً على مصر.

وإننا نحن أصحاب البلاد وما كنيها ننكر على الانكليز أي حق من الحقوق على مصر وننكر عليهم أن احتلالهم الفعلي الذي لا أصل له من القانون، يمكنه أن يكسبهم أي حق علينا أو على بلادنا. ويصدقنا في هذا الإنكار جميع الدول الأوروبية والقانون الدولي والانكليز أنفسهم لأنهم الى اليوم لم يدعوا أنهم كسبوا حقاً من الحقوق. على ذلك لا نخشى نتيجة سيئة من حديث شوقي بك الشبيه بالرسمي فيما يختص بهذه النقطة، نقلة اعتراف عابدين بحق للانكليز على مصر. وانطمئن قلوب الذين ظنوا أن هذا الاعتراف هو نتيجة من نتائج سياسة الوفاق التي لم تر الأمة منها خيراً الى الآن.

(١) نشر في العدد ٤٧٤ من الجريدة في ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ بعنوان «تكوين الحركة الوطنية»

(٢) احمد شوقي بك أمير الشعراء، وكان شاعر البلاط، واشتغل بالسياسة قليلاً فلم يوفق رحمه الله.

غير أن شوقي بك ذلك الشاعر المطبوع القديم والسياسي الجديد، أراد بحريته صرف الأمة المصرية عن طلب حقوقها من الجانب العالي فوضع سيده هذه التصريحات في مركز كان مركز السكوت خيراً منه . لأنه إذا كان الانكليز شركاء اسموه في حق منح الدستور فيما يخصه لظهر ذلك بالأعمال الحسية . ألم يرفض مموه طلب الجمعية العمومية تأليف مجلس النواب إذ كان يرأس مجلس النظار ، أم هل طلب مموه حفظه الله من رجال حكومته أن يحضروا مشروع الدستور أو النقطة الأساسية فيه ليدور عليها البحث بينه وبين الانكليز الذين جعلهم شوقي بك له شركاء في حقوق الخديوية المصرية ؟ وهل أظهر مموه من الغضب لامتناع الانكليز عن موافقته على الدستور ما أظهره في فرصة وزارة نخري باشا^(١) أو فرصة حادثة الحدود ؟ إذا لم يكن شيء من ذلك فهل يعرف شوقي بك وهو اللسان السياسي للسراي، بأي واسطة يمكن للأمة أن تثق حقيقة بأن مموه الخديو مستعد لمنح الدستور أم يكون حديث شوقي بك هو حديث أريد به النتيجة التي أريدت من سؤال المستر « ما كنيل » في البرلمان الانكليزي حين اشتهد المصريون في طاب مجلس النواب في الربيع الماضي إذ وقف المستر ما كنيل في المجلس يسأل ناظر الخارجية الانكليزية عما إذا كان الخديو يستطيع منح الدستور بغير رضى الانكليز . قال ذلك بالضرورة لسمع صوته من لوندرة الى المصريين ، حتى يلتمسوا العذر اسموه أميرهم الذي لا تزال حكومته شخصية في القرن العشرين . إن كانت النتيجة التي أريدت من حديث شوقي بك هي عين النتيجة التي أريدت من سؤال المستر ما كنيل ، فقد صدق الذين قالوا في هذا الصيف ان سياسة الوفاق تنحصر في توسيع السلطة الشخصية لسموه الأمير بعض الشيء في مقابل أن يرضى مموه عن تصرف الانكليز في مصر ، فتسكن الحركة الوطنية وتقبل مطالب الاستقلال .

(١) انظر تعليق في ص ٧٢ من هذا الكتاب